في الريف ...

المؤلف الفرنسي هنري رينيه موباسان

بقلم الأستاذ محمد عبد اللطيف حسن

هناك في منحدر التل الواقع بقرب مجرى النهر، وفي كوخين حقيرين متجاورين، كان يقطن فلاحان يشتغلان بكد وعناء ليخرجا من الأرض الجدبة ما يقوم بأودهما وأود عيلتيهما الفقيرتين ...

وكان يقيم في كل كوخ منهما أربعة أولاد تتراوح أعمارهم بين الست سنوات والخمس عشرة سنة، وكثيراً ما كان هؤلاء الأولاد الثمانية يتجمعون بمقربة من الكوخين ويظلون في لهو دائم ومرح مستمر من الصباح إلى الغروب.

وكان كلا الفلاحين متزوجا، وكلاهما ينجب الأولاد بنسبة واحدة وفي وقت واحد تقريباً! وكانت كل أم من الأمتين تميز أولادها بصعوبة من بين أولاد الأم الأخرى، ولا سيما حينما كانوا يلعبون جميعاً أمامهما!

وكان الأبوان يخلطان في كثير من الأحيان بين أولادهما وبين أولاد الأب الآخر! وكم كان فكها إذا أراد أحدهما أن يدعو ولداً من أولاده أن يردد على الأقل اسم ولدين أو ثلاثة قبل أن تنطق شفتاه باسم الولد الذي يريده!

وكانت عيلة توفاسن تسكن في الكوخ الأول ولها ثلاثة أولاد وبنت، في حين أن عيلة فالنس التي كانت تقطن في الكوخ الآخر لها ثلاث بنات وولد.

ففي ظهر يوم من أيام شهر أغسطس الحارة، وقفت مركبة صغيرة أنيقة أمام هذين الكوخين، وقالت السيدة الصغيرة التي كانت تقود المركبة لزوجها الشاب الجالس بجوارها حينما وقع بصرها على الأولاد الثمانية الذين كانوا يلعبون وقتئذ أمام الكوخين:

— انظر يا هنري إلى هؤلاء الأطفال السعداء.

ثم أشارت بيدها إلى طفل منهم كان يتمرغ مع آخر على الأرض وقالت:

— ما أظرف هذا الغلام وهو يتقلب على الأرض بفرح وسرور ويمرغ نفسه في التراب مع زميله الآخر!!

فلم يجب زوجها على ملاحظتها بشيء على حين استطردت السيدة قائلة:

— كم أود أن أقبل هؤلاء الأطفال جميعا!!

ثم تنهدت تنهدة عميقة حارة صادرة من قلب يائس مكلوم وتابعت حديثها إليه فقالت:

— كم أشتهي يا هنري أن يكون لدينا ولد من هؤلاء الأولاد ولا سيما هذا الولد الواقف هناك بمفرده، وأظنه أصغرهم سنا.

قالت ذلك ثم قفزت من المركبة بخفة ونشاط وهرعت نحو الأطفال وأمسكت بالولد الذي أشارت إليه ورفعته بين ذراعيها وأخذت تقبل خديه القذرين وشعره المجعد المغبر بالتراب، ويديه الصغيرتين اللتين كان يحاول أن يخلص نفسه بهما من بين يديها اللتين كانتا تمسكان به بحنان بالغ ورفق عظيم، ثم تركته وعادت إلى المركبة منصرفة إلى حال سبيلها.

وفي الأسبوع التالي عادت هذه السيدة مرة أخرى وجلست تشاطر الأطفال ألعابهم كما لو كانت واحدة منهم! وقد أحضرت لهم معها في هذه المرة كمية من الكعك والفطائر والحلوى، وأخذت تقدمها إليهم وتوزعها عليهم بنفسها، بينما كان زوجها، واسمه هنري دوبرييه، ينتظرها في المركبة على مضض، وينظر إلى ما يجري حوله بشيء من الدهشة والغرابة.

وصارت تلك السيدة الرحيمة الطيبة القلب، تتردد على الكوخين من وقت لآخر، وكانت تحشو حقيبتها وجيوبها في كل مرة بالحلوى التي كان يتقبلها الأطفال منها بكل لذة وسرور.

وبمرور الأيام تعرفت مدام دوبرييه إلى كل من العائلتين المتجاورتين، وعرضت عليهما صداقتها التي كان لها أحسن وقع وأجمل أثر في نفوسهما الحزينة البائسة.

وفى صباح يوم نزل المسيو هنرى دوبرييه من المركبة واصطحب زوجته معه ثم دخلا كوخ آل توفاسن دون أن يخاطبا فى هذه المرة أحداً من الأطفال الذين كانوا قد تعلقوا بهما وأحبوهما حباً جماً .

وكان توفاسن وزوجته موجودين فى الكوخ فى ذلك الوقت فدهشا لدخول مدام دوبرييه وزوجها الفجائى ، وقدما إليهما مقعدين نظيفين ، وانتظرا بفارغ صبر ما ستقوله لهما هذه السيدة التى بدأت حديثها وقتئذ بصوت خافت ولهجة مترددة :

— لقد أتينا لزيارتكما اليوم ، لأننا نريد أن تتبنى ولدكما الأصغر شارلوت . فذهل توفاسن وزوجته لقولها وعقدت الدهشة لسانيهما فلم ينبسا ببنت شفة . ولكن مدام دوبرييه لم تكترث لدهشتهما البالغة وتابعت حديثها فقالت :

— ليس لدينا أطفال ولهذا نود أن تتبنى ابنكما ، فهل تقبلان ذلك ؟

وهنا بدأت مدام توفاسن تفهم ما تعنيه مدام دوبرييه بهذا الكلام فقالت لها بلهجة لا تخلو من الإستنكار :

— هل معنى ذلك أنكما تريدان أن تأخذا ولدنا شارلوت منا ؟

فتدخل المسيو هنرى دوبرييه عند ذلك فى الحديث وقال :

— إن زوجتى لم تبين لكما غرضنا تماما ، فكل ما فى الأمر أننا نرغب فى أن تتبنى طفلكما الصغير ، وليس معنى ذلك أننا سنحول بينه وبين زيارتكما ، بل إننا سنترك له مطلق الحرية فى التردد عليكما فى أى وقت ، وإذا سلك معنا مسلكا حسناً — وهو ما ننتظره منه فى المستقبل — فسنجعله وريثنا الوحيد ، وحتى إذا أنجبنا أطفالا فى المستقبل فسنشركه مع أبنائنا فى الميراث . وإذا لم تثمر فيه تربيتنا وتعليمنا ، فإننا لن ندعه وشأنه كما يفعل بعض الناس ، بل سنعطيه حينما يبلغ أشده عشرين ألفاً من الفرنكات وسنودع هذا المبلغ باسمه فى أحد المصارف الكبيرة على أن يسحبه إذا بلغ سن الرشد ضماناً لحسن تصرفه فيه ، وزيادة على ما تقدم فإننا سنمدكما بمنحة شهرية قدرها مائة من الفرنكات مدى الحياة .

ولكن أبت عقلية مدام توفاسن البسيطة الساذجة إلا أن تفهم هذا القول على غير حقيقته ، وتؤوله تأويلا آخر ، واستبد بها الحنق والغضب عندئذ فقالت :

— أتريدان منا أن نبيعكما ولدنا شارلوت فى نظير جاهكما العريض ، وثروتكما الطائلة ؟ هذا محال ... محال ! !

وكان يبدو على محيا توفاسن — زوجها — علامات التردد والتفكير العميق دون أن ينبس طول هذه المدة ببنت شفة ، ولكن كان يلوح عليه أنه موافق على اعتراض زوجته بدليل أنه كان يهز رأسه من وقت لآخر موافقة منه وتأييداً لقولها ! !

وبدأ اليأس يتطرق حينئذ إلى نفس مدام دوبرييه فحولت وجهها شطر زوجها وقالت له بصوت مكتئب حزين :

— هنرى ! إنهما يمانعان فى أن نأخذ ولدهما شارلوت معنا !

وحاول المسيو هنرى دوبرييه أن يقنع الزوجين العنيدين لآخر مرة فقال : فكرا جيداً فى مستقبل ولدكما وهنائه قبل أن ترفضا هذا الطلب نهائيا ...

فهزت مدام توفاسن كتفيها بسخرية واستخفاف وقاطعته بقولها : لقد فكرنا ياسيدى فى كل هذا من قبل ، والآن أرجو منكما أن تكفا عن الكلام فى هذا الموضوع ولا تحاولا إثارته مرة أخرى . وبينما المسيو هنرى دوبرييه وزوجته يهمان بالخروج إذ فتح باب الكوخ فى تلك اللحظة ودخل منه ولد صغير يشبه شارلوت إلى حد كبير حتى أن من يراهما لأول وهلة يظن أنهما توأمان ! فلما وقع بصر مدام دوبرييه عليه سألت زوجة توفاسن قائلة : هل هذا الولد الصغير ابنكما أيضاً ؟ ؟ فأجاب توفاسن باقتضاب وهو يحك بيده لحيته البيضاء الكثيفة الشعر : كلا إنه جان فالنس ، ابن جارنا الآخر فالنس الذى يقطن فى الكوخ المجاور ، ويمكنكما أن تحاولا أخذه منه إذا استطعتما ذلك ! !

فرد عليه المسيو هنرى دوبرييه بحزم وإصرار وقال : سنحاول ذلك بكل تأكيد ! فابتسم توفاسن ابتسامة عريضة ماكرة وقال له وهو يهم بالوقوف لتوديعه : إذن أرجو لكما النجاح والتوفيق فى مهمتكما ! ! ولما دخلت مدام دوبرييه وزوجها الكوخ المجاور ، وعرضا على فالنس وزوجته اقتراحهما السابق ، رفض الزوجان هذا الإقتراح فى بادىء الأمر ، ولكن مدام دوبرييه وزوجها ما زالا بهما حتى أقنعاهما بوجاهة فكرتهما ، وصواب رأيهما ، ولا سيما حينما ذكرا لهما المبلغ الذى سيمنحانه فى كل شهر ! ! وبعد فترة قصيرة وجهت مدام فالنس حديثها لزوجها فقالت : مارأيك فى هذا العرض السخى يازوجى العزيز ؟ فأجابها زوجها وهو يفتل بيده الخشنة شاربيه الكثيفين : إننى لا أمانع فى ذلك يا عزيزتى ، وليس عندى أى اعتراض مطلقاً . وتكلمت مدام دوبرييه حينئذ عن مستقبل الطفل ، وسعادته ، وعن النقود

الكثيرة التي سوف يمد بها عائلته في المستقبل . فلما أتمت كلامها سألها فالنس وقد ارتسمت على شفتيه إبتسامة الرضا والإرتياح ، وشاعت الغبطة والسرور في قسمات وجهه الكثير التجاعيد : وهل سنأخذ المائة فرنك على يد أحد المحامين ؟ فأجابه السيو هنري دوبرييه وهو يهز رأسه موافقاً : بلا شك ... بلاشك ! !

وأرادت مدام فالنس أن تنتهز الفرصة فتزيد هذا المبلغ قليلا فقالت لمدام دوبرييه وهي تنظر من طرف خفي إلى زوجها نظرة ماكرة ذات معنى :

— أظن أن المائة فرنك ليست بالمبلغ الكافي في نظير انتزاع ولدنا منا لأنه سيصبح بعد بضع سنوات قادراً على العمل والكسب ، ولذا يستحسن أن يكون هذا المبلغ مائة وعشرين فرنكا في الشهر ! !

فوافقت مدام دوبرييه على ذلك بعد قليل من التردد دون أن يخفى عليها جشع مدام فالنس وشدة طمعها ! !

ولكي تثبت للزوجين الفقيرين مدى غناها وجودها ، فقد أخرجت من حقيبة يدها مائة وعشرين فرنكا وأعطتها لمدام فالنس التي تناولتها منها بمزيد من الغبطة والسرور ، في حين جلس زوجها هنري يكتب شروط الاتفاق بتؤدة وإمعان . فلما انتهى منه استدعى عمدة القرية وأحد الشهود فوقعا معه على العقد الذي أصبح قانونياً من كل الوجوه ...

وخرجت مدام دوبرييه من الكوخ فرحة مسرورة لنجاح مسعاها ، وتوفيقها في مهمتها ، في حين كان الطفل الذي حملته بين ذراعيها يبكي بحرقة وحرارة لفراق والديه وتخليهما عنه ، ويحاول أن يخلص نفسه من بين ذراعيها ولكن بلا فائدة ...

وشاهد توماس وزوجته رحيل الطفل جان بوجهين كالحين . والظاهر أنهما قد لاما نفسيهما على رفضهما التنازل عن ولدهما شارلوت ، وندما — بعد فوات الوقت — على ضياع هذا الكنز الثمين منهما ! !

ولم يسمع أحد من أهل القرية شيئاً عن جان فالنس لمدة طويلة من الزمن . وكان أبواه يذهبان في أول كل شهر إلى مكتب المحامي فيتسلمان منه المائة والعشرين فرنكا ثم يعودان إلى كوخهما آمنين مطمئنين ...

وساءت العلاقات حينئذ بين عائلة فالنس وبين عائلة توفاسن التي كانت تميرها وتحط من شأنها أمام أفراد القرية لأنها فرطت في ولدها جان وباعته لمدام دوبرييه وزوجها بيع السلع ! وكانت مدام توفاسن تمسك بولدها شارلوت من وقت لآخر وترفعه بين ذراعيها ثم تخاطبه بقولها :

— إنني لم أبعك ولن أبيعك يا ولدي العزيز بالرغم من أنني لست غنية كما تعلم ويعلم جميع الناس ...

وكانت لا تفتأ تردد هذه العبارات التهكمية وأمثالها في كل يوم بلهجة ساخرة وبصوت عال مسموع كان يصل في كثير من الأحيان إلى مسامع فالنس وزوجته ! وبلغ الغرور بمدام توفاسن إلى حد أنها كانت ترعم نفسها أعظم شأناً من أهل قريتها جميعاً ، وأرفع منهم منزلة وأعلاهم مقاماً ، لا لشيء إلا لأنها لم تبع ولدها شارلوت ! ولم يتب هذا الغرور عن أهل القرية أنفسهم ولم يفتهم أن يلاحظوا عليها ما كانت تدعيه من العظمة المصطنعة والخيلاء الكاذب ، ولكنهم كانوا مع ذلك لا يفتأون يرددون أمامها أنها سلكت مسلك الأمهات الطيبات القلب ! ! ولما بلغ شارلوت الثامنة عشرة من عمره كان يتباهى على أقرانه ، ويعتقد — كوالديه — أنه أعلى منهم مرتبة وأسمى مكانة لأن أمه المحبة لم تبعه كما باعت مدام فالنس ولدها جان ! ! وبينما كانت عائلة فالنس ترتع في بحبوحة العز والرفاهة ، كانت عائلة توفاسن لا تزال على ماهي عليه من الفقر المدقع والفاقة البالغة ! وكان يسار أسرة فالنس وغناها هما السر في هذا البغض ، والباعث على تلك الكراهية التي كانت تبديها عائلة توفاسن نحوها في كل وقت وفي أي مناسبة ! ! وبعد مضي مدة انخرط الابن الأكبر لمدام توفاسن في سلك الجندية ، بينما توفي ولدها الآخر إثر مرض خطير ألم به ولم يمهله إلا بضعة أيام . أما شارلوت فقد ظل في القرية ليساعد والده الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً ، وليعين أمه العجوز وأخته الوحيدة على العيش ومكافحة صعاب الحياة . وكان شارلوت قد بلغ الحادية والعشرين من عمره حين وقفت في صباح يوم مركبة صغيرة جميلة أمام الكوخ المجاور ، ونزل منها شاب قوي وسيم الطلعة ، أنيق الثياب ، . ثم دخل الكوخ بقدمين ثابتتين ، وخطوات متزنة واسمة ... وكانت مدام فالنس تغسل ثيابها في ذلك الوقت ، بينما كان زوجها الذي بلغ من العمر أرذله يستدفىء بنيران المدفئة . وقبل أن يفيق الوالدان من دهشتهما تقدم الشاب — ولم يكن إلا ابنهما جان فالنس نفسه — نحوهما وقال لهما وهو

يمد كلتا يديه لصافحتهما : أسعدتما صباحا يا والدى العزيزين ...

فهب الأب من مكانه دهشاً مذهولا ، وعقدت المفاجأة السارة لسانه عن النطق ، بينما ألقت الأم بقطعة الصابون فى الوعاء الذى كانت تغسل فيه ثيابها لفرط اضطرابها ودهشتها وهرعت نحو ابنها الذى لم يكن قد زارها منذ أن اصطحبته مدام دوبرييه معها ، وقالت له بصوت مضطرب ترتعش النبرات وهى تتأمله بزهو وإعجاب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه : هل أنت حقاً ولدنا جان ؟ ؟ فضمها الشاب إلى صدره بحنان ورفق وقال لها وهو يضحك ملء شدقيه : نعم إننى ولدكما جان ! وقد جئت اليوم لزيارتكما بعد أن أصبحت أحد المحامين الذين يشار إليهم بالبنان وسأمكث فى ضيافتكما بضعة أيام . فقال له الأب بصوت يرتجف من فرط الانفعال وشدة الفرح والسرور : على الرحب والسعة يا بنى العزيز . وبعد أن استرد أنفاسه اللاهثة استطرد فى حديثه فقال : كم أنا سعيد بلقائك يا والدى ، ولا سيما بعد أن أصبحت رجلا كامل الرجولة ... ولما أفاق الأب والأم من دهشتهما صمما على أن يقدما ولدهما جان إلى أهل القرية جميعاً . فعرفاه أولا بعمدتها وقسيسها وناظر مدرستها . ثم عرفاه أخيراً ببافى أفراد أهل القرية الذين استقبلوه بحفاوة بالغة وسرور عظيم . وشاهد توفاسن كل هذا بعين دامعة تفيض بالألم والهم والعذاب ، ونفس حزينة تملأها الحسرة والندم على ما فات ! وقد تغيرت نظرته إلى الحياة بعد ما رأى جان فالنس فى ملبسه الأنيق وثيابه الغالية وشبابه الحيوى الفياض ، بينما هو لا يزال فى فقره المدقع وأسماله الرثة البالية ،

وفى المساء حينما اجتمع شارلوت بوالديه حول المائدة ، قال لها بصوت باك حزين تخنقه العبرات : أظنكما رأيتما جان فالنس فى هذا الصباح وشاهدتما ما هو عليه الآن من وسامة الشكل وفخامة الثياب ؟ فأجابته أمه باكتئاب دون أن يفوتها تغير ابنها الفجائى غير المنتظر : نعم يا بنى ! لقد شاهدنا كل ذلك ! ولكننا لم نشأ أن نبيعك إلى مدام دوبرييه وزوجها كما فعلت مدام فالنس وزوجها بابنهما جان ! لأننا رأينا أن فى ذلك عارا عليك وإثما فى حقك كما هو عار علينا وإثم فى حقنا أيضاً ... ولم يفه والده أثناء ذلك بكلمة واحدة ، بينما استمر الابن فى حديثه الساخط المؤلم فقال :

— إنها لغباوة منكما حقاً أن تدعا جان فالنس يذهب مع مدام دوبرييه وزوجها بدلا منى ! وإنه لمن سوء حظى أيضاً أنكما لم تضحيا بى بسبب حنانكما وغروركما وأنانيتكما ... وهنا تدخل الأب فى الحديث فقال موجهاً كلامه لابنه : هل تلومنا الآن يا ولدى لأننا لم نشأ أن نفرط فيك كما فرطت مدام فالنس وزوجها فى ولدهما جان ؟ ولكن شارلوت لم يأبه لدفاع والديه بل هز كتفيه ساخراً واستمر فى ثورته فقال : نعم إننى ألومكما لأنكما فوتما على هذه الفرصة التى قل أن يجود الدهر بمثلها . وإن الآباء والأمهات أمثالكما كثيراً ما يجنون على أولادهم بجهلهم ، ويحطمون مستقبلهم بمثل هذا الحنان الضار ، والحب المرذول ، والأنانية المقوتة . فقالت له أمه وقد حز فى نفسها حديث ولدها المؤلم وثورته الصاخبة : هل هذا جزاء حبنا لك واحتفاظنا بك ؟ فأجاب شارلوت وهو يكاد يبكى من شدة الحنق والغيظ وقد اعتمد ذقنه براحة يده : كم أتمنى الآن لو لم أكن قد ولدت حتى لا أظل فى هذه الحالة المؤلمة التى أنا عليها الآن . وبعد لحظة سكوت قصيرة تابع حديثه إليهما فقال بلهجة أشد وأعنف من الأولى : إننى عندما رأيت جان فالنس فى صباح هذا اليوم وهو ينزل من مركبته الأنيقة الفاخرة جرت دماء الحقد والغضب حارة فى عروقى وقلت مخاطبا نفسى : (لو قبلت عائلتى ماعرضته عليها مدام دوبرييه وزوجها من قبل ، لكنت الآن فى مركزه وظل هو فى مركزى) . قال ذلك ثم نهض من مقعده فجأة وقال لهما وشرر الغضب يتطاير من عينيه الدامعتين ، والحنق الكامن فى أعماق نفسه الثائرة يلوح على أسارير وجهه الحزين المكتئب : إننى لن أغتفر لكما هذه الغلطة ما حييت ، وقد استقر رأيى الآن على مغادرة هذه القرية إلى الأبد ، والنزوح إلى قرية بعيدة نائية لا يعرفنى فيها أحد ولا أعرف بها أحداً ، لأكسب فيها عيشى بعيداً عنكما وعن أهل هذه القرية جميعا . قال ذلك ثم فتح باب الكوخ بسرعة وهرع إلى الخارج بعد أن صفق الباب وراءه بشدة وعنف حتى لا يتمكن والداه من اللحاق به وإثنائه عن عزمه ، ثم سار فى الطريق مسرعا على غير هدى واختفى فى ظلام الليل الحالك السواد .

محمد عبد اللطيف حسن

بادر باقتناء نسختك من كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

احمد حسن الزيات

وفيه زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً

شعاب قلب

دروس نفسانية تحليلية

صور من صميم الحياة

تحاليل فحصى على نفس القارئ

عرض مشوق مرغب

بقلم

حبيب الزحلاوي

يطلب من إدارة الرسالة الثمن ١٥ عدا البريد

سكك حديد الحكومة المصرية

صرف تذاكر مشتركة إلى الوجه القبلي بأجور مخفضة للسفر بها بالسكك الحديدية والمبيت في عربات النوم والاقامة في اللوكاندات

يشرف مدير عام السكك الحديدية باعلان الجمهور أنه بموجب اتفاق مع شركة لوكاندات وجه قبلي وشركة عربات النوم قد تقرر إعادة صرف التذاكر المشتركة بمعرفة مصلحة السكك الحديدية للحكومة المصرية إبتداء من ١٥ يناير سنة ١٩٤٦ لغاية ٣٠ أبريل سنة ١٩٤٦ بأجور مخفضة للسفر بالسكك الحديدية والمبيت في عربات النوم والإقامة في اللوكاندات وتشمل هذه التذاكر الإقامة في اللوكاندات يومين وليلة أو ٥ أيام و٤ ليال أو ٧ أيام و٦ ليال أو ١٠ أيام و٩ ليال حسب الأثمان الموضحة بالتعريفة الموجودة بالمحطات وشركة عربات النوم والشركات المعتمدة لصرف هذه التذاكر ولزيادة الايضاح يستعلم من المحطات .

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)